الدكتور زكي مبارك

« لو شرب الصخر من رحيق الوجود بعض ما شربت لتحول إلى أوتار وقلوب . فكيف أصمت والدنيا كلها تتأرج من حولى بأنفاس الأزهار والرياحين ، ولى قلب يتشوق إلى أفنان الجمال تشوق الشمس إلى أنداء الصباح » .

زكى مبارك

وأخيراً صمتت القيثارة الخالدة التى غنت روائع الألحان ، وسكت القلب الكبير الذى كان يتشوف الى أفنان الجمال ، وانكسر اليراع الذى أقام الدنيا وأقعدها ، وارتاح العقل الجبار الذى سما بصاحبه الى سماء لايطار لها على جناح . لقد مات زكى مبارك . ومات بموته أديب أكسب اللغة العربية أروع حلل البيان ، وزود المكتبة العربية بتحف غراء ستبقى خالدة على مر الأزمان ما دام للغة العربية قراء ، وما دام فى البلاد العربية منصفون .

ان « زكى مبارك » لم ينصف فى حياته . أما كيف كان ذلك فهو شىء ليس من اختصاصنا . ولكن الذى نعرفه أن نفس الرجل كانت أكبر من جسمه بآلاف المرات ، فشقى فى الدنيا شقاء مراً . ويجد القارىء صدى ذلك الشقاء فى كلِّ ما كتبه ذلك الهزار الصريع . وقديماً قال المتنبى :

واذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

نال زكى مبارك الأجازات العلمية العظيمة بجدارة واستحقاق بعد أن سهر السنوات الطوال فى غفوات الليل البهيم دون ملل أو اعياء ، سهر فى القاهرة ، وسهر فى باريس وسهر فى بغداد . عكف على الطروس ، وهو طالب علم ، بينما كان زملاؤه يعكفون فى المقاهى والمنتديات . وغازل العلم والعرفان بينما غازل غيره الغيد الحسان . واتخذ اليراع خلاً وفياً بينما اتخذ الآخرون النرد وغيرها من أدوات اللهو والضلال . وكانت النتيجة أن نال الدكتوراه ثلاث مرات متتالية من جامعة السوربون ومن الجامعة المصرية العظيمة .

ولكن هل استسلم للراحة والاستجمام بعد ذلك العمل المتواصل والنصر المبين ؟ وغادر روض الأدب والفلسفة بعد ما نال الدرجات والشهادات ؟ ان كتب الفقيد تغنينا الرد على هذا السؤال . بل ان رسالة الزيات الخالدة تعلن لنا بصراحة ، ان « زكى مبارك » كان مثال النشاط والطموح والنبوغ . كان رحمه الله مبارزاً شجاعاً لا يهاب النقد ولا يبالى النزال ، فيقتحم الميدان مقارعاً ومناضلاً ، حتى لم يسلم من نقده أديب كبير أو صغير . فالمساجلات التى دارت بينه وبين أساطين الأدب ، اكسبت الأدب العربى ثروة زاخرة أنارت الطرق أمام الشباب ،والمساجلات التى دارت بينه وبين صغار الأدباء ، أبرزت هؤلاء الى مكان مرموق بعد أن كانوا منسيين فى زوايا المجتمع .

ولكنَّ تلك الشعلة المنيرة ، وذلك الطموح العظيم ، وهذه المساجلات القيمة ، زالت من الوجود عند ما بدأ اليأس يتسرب الى قلب الرجل العظيم نتيجة للعقوق . إن العقوق الذى لاقاه زكى مبارك فى حياته جعله ينطوى على نفسه ، ويترك هذا الميدان الرطيب ، ميدان الأدب الرفيع الى ذلك الميدان الضيق . . ميدان الجرائد التافهة ، الذى لا يؤمه سوى طبقة محدودة من القراء الذين ينفسون عن أنفسهم بقراءة الأدب الخفيف .

ترك زكى مبارك الميدان فى عز مجده الأدبى منذ ثمانى سنوات ، فى وقت كان فيه الأدب فى أمس الحاجة الى روائعه . وعجب قراؤه ومحبوه وظنوها فترة استجمام تنتهى بعد أيام أو شهور . وإذا به يطلع عليهم بعد مدة فى صحف لا تمت الى الأدب الرفيع بنسب أو صلة . فأسفوا ونال منهم الحزن منالا عظيماً ، وأيقنوا عند ذلك أن العندليب الذى غناهم أروع الأناشيد قد أصبح مقطوع الجناح ، يرسل آهات الألم ولا من مجيب ، ويستجير من وخزات الظلم ولا من مجير .

واليكم لوناً من ألوان العقوق الذى منى به الفقيد . فهو يقول عن كتابه « النثر الفنى » وهو من الكتب

الأدبية الخالدة (*) « هل تعرفون كيف استقبلته وزارة المعارف الموقرة؟ اشترت منه « أربعين » نسخة فقط ، لأن مؤلفه ليس له فى الحكومة المصرية عم أو خال . وجاءت لجنة اختيار الكتب بوزارة المعارف فأهملته وقررت غيره من الكتب التى لا يمكن أن تغنى عن كتاب « النثر الفنى » وكذلك الحال مع كتبه الأخرى « عبقرية الشريف الرضى » و « التصوف الإسلامى » و « الأخلاق عند الغزالى » وغيرها من الكتب القيمة التى سدت فراغاً فى المكتبة العربية . فهل يلام إذن إن شكا من دهره الخئون . ولم يدم عجب القراء طويلا ، لأنهم ألفوا مثل هذا العقوق فى الشرق فى كل يوم بل فى كل رفة جفن . وما أجمل قول شاعر العراق محمد مهدى الجواهرى :

قُتِل العقوقُ : فكم قتلنا نابغاً
بين البيوت وكم وأدنا قائدا

لكن الذى جعل القراء يأسفون كثيراً وقوع هذا العقوق فى مصر . مصر العظيمة التى أضحت كعبة طلاب العلم والأدب . مصر الخالدة التى يأنس الأديب فى جنباتها ويأمنُ من غوائلَ الزمن . مصر التى فهمت معنى الثقافة فأخذت تنشر دررها ولآلئها فى أرجاء البلاد العربية . وما تلك الدرارى واللآلىء إلاّ كتب أبنائها البررة التى أنارت السبل أمام الشباب ، فأضاءت لهم ما حولهم فمشوا بثبات واقدام . مصر التى ترعى حقوق الأدباء والعلماء مهما كانت جنسياتهم ومذاهبهم. مصر تعق « زكى مبارك » الإبن البار الذى سجل لها فى تاريخ الأدب مجداً لن ينكره ناكر مهما بلغ من الجحود ، ووهب قلبه وعقله لخدمتها فى القاهرة وبغداد وباريس وغيرها من البلاد العربية التى حط فيها عصا الترحال ، ولم يدخر وسعاً فى تمجيد مصر فى أشعاره الغرر وكتاباته الدُّرر ؟ ؟ ؟ إن التاريخ يقف أمام هذه الظاهرة حائراً مذهولاً . زكى مبارك العظيم يموت وهو مدرس بسيط . وهو الرجل الذى ألف خير الكتب وأنفسها . بينما تسنم غيره المناصب العالية ، وهم لا يستطيعون الاتيان بمعشار ما أتى به ،

ثم ما هذا العقوق بعد موته ؟ أين المقالات والقصائد التى يجب أن تقال فى رثاء هذا البلبل الصداح ؟ بل أين الأدباء الذين وهبهم زكى مبارك قلبه وروحه وجسمه ، وأنار عقولهم بعد ظلمة وقلوبهم بعد عمى ؟ بل أين مجلة الرسالة الخالدة التى استنفدت قوى الأديب الراحل ، وسلبت لبه وقلبه وروحه وجعلته يسامر النجوم ويستقبل الفجر وهو منكب على أوراقه فى سبيل خدمتها ؟ وأين الزيات العظيم الذى خاطبه يوماً ما زكى مبارك « تحيتى إليك والى السامرين فى نادى الرسالة من كرام الأصدقاء . وتحيتى إلى القاهرة التى لا تقع فيها العين إلا على نجم أزهر أو كوكب لماح » ؟

(المرحوم الدكتور زكى مبارك)

ان قصر الأدباء فى حق زكى مبارك وقصرت جميع المجلات أيضاً . فاننا نرجو من أستاذنا الكبير أحمد حسن الزيات أن ينصف صديقه الطيب القلب ، الذى لم يحالفه الحظ ، لصراحته المتناهية . وتكالبت عليه شتى القوى فأحالته شخصاً يائساً محطم القلب ، حتى غادر الحياة وهو يذرف الدموع الحرار على ما ناله من ظلم الزمان وغدر الأيام .

ان الزيات العظيم الذى قال فى حق زكى مبارك ، أيام أن كان فى عنفوان سؤدده « وزكى مبارك — ان أردت فيه كلمة الحق — مجاهد باسل من المجاهدين القلال الذين شقوا طريقهم فى الحياة بالقوة ، وأخذوا نصيبهم من المعرفة بالكد ، وأحلوا أنفسهم محلهم اللائق بالصراع . وهو أحد الأدباء الذين لم يقم مجدهم الأدبى على الظروف والحظ ، واذا قد وقع فى حياته فهو الحظ المنكود : لأنه تعلم بكدح قلمه ، وتقدم بفضل جهاده ، ثم كانت الظروف التى تساعد غيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة » هو نفسه الزيات الذى يستطيع إحياء ذكرى زكى مبارك وأدبه من جديد على صفحات الرسالة الغراء بكتابة مقالات عن فنه وعلمه وأدبه . وأنا نرى أن خير أديب يستطيع القيام بهذه المهمة من أسرة الرسالة — بعد الزيات —

(*) نال بهذا الكتاب درجة الدكتوراه من جامعة السوربون فى باريس .